وقعة بدر
النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحى

ظل النبى ﷺ مرتقبا عَوْد تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها ، فندب صحابته للخروج معه إليها ، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وهو عدد يكفى لما هو بسبيله ، فاكتفى بهم ، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها ، منها فرسان وسبعون بعيرا .

فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله ﷺ للاستيلاء على أموالهم ، وكان قائدا لحامية القافلة ، أرسل إلى قريش رسولا يعلمهم بالخبر ، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل ، رجاء أن يفلت ممن يترصدونه . وتسارعت رجالات قريش إلى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير . ولم يعلم رسول الله بكل هذا ، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الأخبار ، ثم سار حتى بلغ الرَّوْحاء ، وهى على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربى للمدينة ، وهنالك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها ، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد . فاستدعى النبى ﷺ كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعده إحدى الطائفتين : قافلة التجارة ، أو جيش قريش ، فتبين أن الرأى الغالب يميل إلى الاستيلاء على القافلة ، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال ، ليأخذوا له عدته ، فأنزل الله فى ذلك قرآنا يعاتبهم وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [1] ، أى أنكم طلبتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم .

عند ذاك قام المِقْداد بن الأَسْود وتكلم ، وكان مما قاله : « يا رسول الله

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية (٧) .

امض لما أمرك الله ، والله لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . فدعا له بخير . ثم التفت إلى رجاله وقال : أشيروا علىّ أيها الناس ، وهو يريد أهل المدينة ، لأن البَيْعة التى أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعا وهو بين أظهرهم .

فقال له سعد بن مُعاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنّه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ؛ إنا لصُبُر عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله بريك منا ما تقر به عينك ، فسِرْ على بركة الله » .

فأشرق وجه النبى ﷺ لهذا الكلام وسُرَّ به . وعند ذاك التفت إلى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة إلى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل إلى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيهابوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا الرأى الأَخْنَس بن شَرِيق الثقفىّ فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا . وسار جيش قريش حتى وصلوا إلى وادى بدر فنزلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبى ﷺ ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى

---

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب . ويطلق ويراد به أقصى المعمورة .

بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تتثبط عزائمهم وهم قريبو عهد الإسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مِدْرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث وبيلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال . وقد أشار الله إلى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [١] .

ثم سار النبى ﷺ على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الحُباب بن المنذر الأنصارى وكان مشهوراً بأصالة الرأى : يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله : بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائة وكثرته ، فتنزله ونغوِّر ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال له النبى ﷺ : لقد أشرت بالرأى . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغُوِّرت ، وبنى حوضا على البئر التى نزلوا إليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش [٢] فوق تل ليشرف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوَّم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر إلى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذّب رسولك ، اللهم فنصرْك الذى وعدتنى به » . ثم نظر إلى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات فى مجالدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم » .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (١١) .

(٢) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للكرم . وشبه الخيمة من خشب وثمام جمعه عرش بضمتين .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبى ﷺ لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإنْ اكتنفتم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال ﷺ : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قَتل قتيلا فله سَلَبه » .

وأمر النبى بالحملة على المشركين ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع إلى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وُجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البَخْترى بن هشام ، والجراح والد أبى عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه على ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل ابن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصى ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُدّ الأسرى فكانوا سبعين رجلا أمر النبى ﷺ أن يقتل منهم عقبة بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤلبين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر ﷺ أن يدفن قتلى المشركين فى قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب إلى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

فقال له رسول الله : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاف على مصير أسرى بدر :

استشار النبى ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم إلى الضلالة ؛ ووافقه سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا له عضدا .

فمال النبى ﷺ إلى رأى أبى بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك إلى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جُعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما آذى المسلمين بلسانه ، فخاطب عمر فى شأنه النبى ﷺ قائلا : دعنى يا رسول الله أنزع ثَنِيَّتَىْ سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطنٍ أبدا .

فقال له النبى ﷺ : لا أمثِّل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبى ، وذلك أنه لما توفى ﷺ وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

عتاب الله للمسلمين فى أمر الفداء :

قرر النبى ﷺ بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير إلى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا فى الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا فى إيذاء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أن يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ

أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

معنى هذا أنه ليس لنبى أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكثر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للثأر من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذى عرف عن الإسلام أنه دين رحمة وسماحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق فى تسامحه وسعة صدره كل ما عرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله فى هذا الموطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة فى معاملة رجالات قريش الذين أُسروا فى معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى فى هذا التشديد أروع مظهر لإلهية هذا الدين . وسنجلى هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الإسلامية التى يذكرها المعترض لم تكن قد نزلت بعد ، وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الإسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتل الأسرى قبل الإثخان فى الأرض ، وبين الأصول التى يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافى الرحمة التى يجب أن يتصف بها شرع إلهى .

وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا فى أن قتال المسلمين لمشركى العرب كان الداعى إليه كسر شرتهم فى معاكسة الإصلاح العالمى الذى هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافى كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون

---

(١) سورة الأنفال ، الآيتان (٦٧ – ٦٨) .

موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم فى مقابل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا إلى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود إلى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة فى تدويخهم .

فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لا يجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم .

وأما من ناحية أن فى العتاب القرآنى أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة إلى ضروب من التسامح يكسر بها حدة خصومه ، ويفل ما استطاع من غَرْبهم . فإذا ظفر ببعضهم فى إبان ضعفه ، فلا يبالغ فى النكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظر المتجبر ، فيُضْغِن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة فى قمعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة فى البلاد العربية كان يقع من باقى أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلمس الأنصار والأحلاف للأخذ بالثأر ممن قتلوهم .

فتجد مدعى النبوة يفكر فى هذا الأمر جيدا ، ويتقى حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجىء هذا العتاب يقلب هذه المدارأة رأسا على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهده استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شىء من التسامح قبل أن يثخنوا فى أعدائهم . وهذه صراحة تجافى ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشىء حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحققة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفى كل هذا دليل ضمنى على أن الاجتماع الإسلامى كان يتولاه ويربه الوحى الإلهى فوق العقل البشرى ، لأن العقل فى مثل هذه الحالة يأبى أن يقف هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصم نفسه على رءوس الأشهاد بأنه فيما تسامح به

قد آثره عرض الحياة الدنيا على ما وُعد به من ثواب الآخرة .

فإنْ قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحى الإلهى المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذى اتخذ فى شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحى لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الإسلامى قادرا على القيام بنفسه ، ومتمرسا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحى لم يضطرب فى سيره ، ولم يحتر فى تصريف أمره .

وقد عرف أخيرا أن خير التربية هى أن لا تبالغ فى حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر إليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصريف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ فى تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيده فى إكسابه الحزم والتثبت ما لا يفيده ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعات الإسلامية قد تولاها الوحى على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدها بكل ما يُسمح به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاقت وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحى فى ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحا لا يعرف فى تاريخ البشرية له مشبه ، ألم تتأد الأمة الإسلامية فى سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم التى سبقتها فى قرون كثيرة ؟ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٩ هـ .

الأمور الخارقة للنّواميس الطبيعية
فى وقعة بــدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى ، صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فُهم منه ؛ ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد ﷺ فى أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة ، على أن لا نسرف فى صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت ، والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدى إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التى كان لها شأن عظيم فى كسر شرة أنصار الجاهلية ، والطَّأمنة من خيلائهم وكبريائهم ، ولم أُلِمّ بما صحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتنى التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لنتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التى وردت فى شأنها من الكتاب الكريم . قال الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١] . يذكّر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم فى موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبيد طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القولَ إلى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شىء ، فامض لما يوجهك الله إليه ، فإنه هو الذى يدبر أمر خلقه ، فإما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فإنهم ظالمون .

وقال تعالى فى سورة الأنفال مشيرا إلى وقعة بدر : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (قافلة التجارة أو جيش المشركين) ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » [٢] .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابه ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات (١٢٣ - ١٢٨) .

(٢) سورة الأنفال ، الآيات (٧ - ١٩) .

كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بأن يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليذيقكم نعمة الأمن ، وأنزل لكم من السماء ماء ليروى ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا المؤمنين فى الحرب ، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب ، إلخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموهم ، والحقيقة أنكم لم تقتلوهم ، ولكن الله هو الذى قتلهم ، وما رميتَ يا محمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شاهت الوجوه ، ولكن الله هو الذى رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر (الكلام مسوق على سبيل التهكم) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل فى هذه الآيات يدرك منها أمورا لا يمكن التردد فيها :

(أولها) أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عَدده واكتمال عُدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والإنسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

(ثانيها) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الإعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملكى هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

(ثالثها) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبى ﷺ عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تُركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الإسلام ، ويوقر فى صدور الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والأنصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فإن هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالإسلام ، ما عُزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوّهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم . قال أبو تمام الطائى فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على امبراطور الرومان تيوفيل سنة (٣٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللائى نُصرت بها ... وبين أيام بدر أقربُ النسب

* * *

وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الإعجاز فى هذه الموقعة يتجلى بمرجحات من نوع آخر . ذلك أن النبى ﷺ لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فإن مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب

من أُهَب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأُهَب للتموين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبى ﷺ أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبى حين ندبهم أنهم قد يُدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبى ﷺ وعمل على ملافاته ، وهذا الإقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لابد منها لأسباب فنية وجيهة :

(أولها) تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعة ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلَب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى ﷺ : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ،

وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولو هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلقَ فُلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ (١) . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث الخطيرة .

رد شبهة فى هذا الموطن :

قد يقول معترض : ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فإذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهنالك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يُوحى . فإذا اتفق لقائد أن

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية (٤٧) .

يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال و لم يُبَلْ ، لأنّ عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، أُعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة إزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلَب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العُتُد العادية .

نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها إلى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المِئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالإسلام ، و لم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يَفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شيء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضّهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم .

ولو أضفت إلى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما إلى زيادة عدد حاميتها ، وإما إلى الإقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا فى إبادة هذه الطائفة التى قامت عقبة فى سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، فى مدينة مبنية ، ليموتوا فى حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا

بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التى تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة فى القتال ، وإذا أضفت إلى ذلك تفوقه فى العَدد والعُدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات فى تلك البيئة التى كان أهم ما يحرك الهمم فيها إلى حدود التضحية ، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التى كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة فى مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها فى هذا الركن المنعزل من الأرض .

فإن أصر المعترض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طفرة إلى حد تضحية النفس فى سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التى نحن بصددها ، وأدل على المدد الإلهى منها . فعلى أى أساس صحيح يستطيع البيكولوجى أن يعلل انتصار المسلمين على عدوهم فى بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر للإعجاز فيها (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٩ هـ .

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش ببدر

قد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره المقررة فى قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وُجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تكفى فى تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لا يتوقف على الاندماج فى جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فكان لا بد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة .

فإذا كان على محمد ﷺ ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنّى له أن يوجد لها الزمان الكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره فى حياة الجماعات ؟

اللهم إن هذا من المحالات العلمية ، وهو فى البلاد العربية التى لا يوجد فيها

من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وُجدت إلى مبعث النبى ﷺ ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تآلفها . فانتداب محمد ﷺ للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وُجد العالم إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد ﷺ ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وَجّه النبى همته إليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هى ، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شُرع لإصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بانشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟

هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه

بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدِّرِكَمْ كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيّتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما و لم تتركا أثرا .

فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فإن فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البنَّاء حيث أراد ، لاحماً بعضها ببعض بالمِلاَط ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمِساك الذى يجمع بينها مؤلف من رُبُط معنوية تشترك فى تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الألوف من الآحاد فى وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الفئام التفكك ، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا فى آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتنفعل جميع أعضائه فى اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لِمَ تَحَرك .

فتخيلْ كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين إلى هذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها فى أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فإذا رأيت أمما قائمة و لم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا

لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعى يجرى على أدوار متعاقبة ، فى آماد طويلة ، تنفقها الطبيعة فى التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا بصبّها فى قالب واحد ، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاونى يحول تصادمها الضار إلى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد فى كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعى البطىء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر إلى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجى التى تسلكها الطبيعة فى إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهى لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول إلى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

تأمل فى قوله تعالى : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ﴾ ، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم اليوم على النحو الذ ذكرناه هنا . فإن الذى يؤلف القلوب ، ويوحد بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى ﷺ واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف إلى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على

---

(١) سورة الأنفال ، الآيتان (٦٢ – ٦٣) .

آساسها [١] . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشمرة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعُجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد ﷺ . فإذا ألانت النبوة الحديد ، وفجرت الماء من الصَّيَاخِيد [٢] ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلآنة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تَشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، مثولها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه .

ذلك العامل الخفى الذى أُخْفَينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفثه محمد ﷺ فى روُع جماعته [٣] ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت إلى الإيمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ، لأن الإيمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها إلى الأغراض التى تُوَجَّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها إلى أى الوجهات أراد .

---

(١) آساس جمع أسس (بفتحتين) وهى بمعنى الأس (مثلثة) والأساس . وجمع الأس إساس (بكسر الأول) وجمع الأساس أسس (بضمتين) .

(٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول .

(٣) الروع (بضم الراء) : القلب والذهن والعقل . والروع (بفتحها) : الفزع .

نقول : مهلاً مهلاً ، فإن فى طىّ هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الإعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا (الإيمان) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قُدُما فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبى أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيُخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

كانوا معدّدين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .

كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل .

كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .

كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنوّر عالم الروح .

كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .

كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .

كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم .

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالإيمان الذى يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لابسها من الأصول التى صارت بتوالى توارثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر إليه نظرنا إلى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا (الإيمان) الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق

الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعوين لا (إيمان) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور إلى مسألتنا الأولى وهى الإيمان . فما الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟

قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد إلى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك إلى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال إلى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل إلى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟

المسألة خطيرة ، خطيرة إلى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب إلى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة إلى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مُدَوِّيا ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحقة تثمر ثمراتها فى الجماعات التى تحل بها ، دون أن تستطيع أية قوة

صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) .

نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء فى طريقها ، ولكنها تتغلب عليها فى النهاية كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الإعجاز (بإيمان) راسخ بنبوة محمد ﷺ ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش فى صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة فى آماد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق فى علمه من الانقلابات العالمية التى كان العالم فى أشد الحاجة إليها . بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت فى الأدوار التى سيقت إليها تحت هداية الوحى ، وقوامة خاتم المرسلين محمد ﷺ ، والله ولى التوفيق (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة المجادلة ، الآية (٢١) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (٣٤) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٩ هـ .